2- نظرية الوجود Ontologie :

الأنطولوجيا لفظ يستخدم في بعض الأحيان كمرادف للمِيتافيزيقا (Métaphysique)[28] ، و لكنه يدل بصورة أدق على ذلك الفرع من الميتافيزيقا الذي يدرس الوجود في أكثر صوره تجريدا و عموميتا . و يعد الألماني **فولف C. Wolf** (1679-1754) أول من أطلق اسم الانطولوجيا على مبحث الوجود و جعله فرعا من ما بعد الطبيعة التي تشتمل – بالإضافة اليه – البحث في الكون و في النفس و في اللاهوت .

و يشتمل مبحث الوجود على النظر في طبيعة الوجود على الاطلاق مجردًا من كل تعيين أو تحديد و بذلك يترك للعلوم الجزئية البحث في الوجود من بعض نواحيه ، فالعلوم الطبيعية تبحث في الوجود من حيث هو جسم متغير ، و العلوم الرياضية تبحث في الوجود من حيث هو كم أو مقدار، أما البحث في الوجود من حيث هو موجود على الاطلاق فمن شأن مبحث الوجود - ما بعد الطبيعة عند القدماء - .

و تبحث الانطولوجيا في خصائص الوجود العامة بغية وضع نظرية في طبيعة العالم ، و النظر فيما إذا كانت الأحداث الكونية تقوم على أساس قانون ثابت أو تقع مصادفة و اتفاقا ، و فيما إذا كانت هذه الأحداث تظهر من تلقاء نفسها أم تصدر عن علل ضرورية تجري و فق قوانين المادة و الحركة ، و فيما إذا كانت تهدف إلى غاية أم تسري عفوية عن غير قصد ...الخ

2- 1- مفهوم الوجود :

الوجود مفهوم فلسفي يقصد به مطلق الواقع و يقابله العدم (néant) سواء كان هذا الواقع ماديا أو روحيا أو ذوات أو حالات كما يُعرّف الوجود بأنه كل حكم ينطوي على تقرير وجود ، و يعبر عنه بفعل الكينونة (être) كقولنا **أرسطو فيلسوف** ، و لو حُللت العبارة لكانت **أرسطو يكون فيلسوفا**.

و يفرق **مارتن هيدغر M. Heidegger** (1889 – 1976) بين الموجود و الوجود ، حيث أن الموجود هو الكائن المتحقق و المتصف بالماهية و الوجود معا ، في حين أن الوجود يعني الوصف العام لكل موجود بغض النظر عن تعيينه .

و للوجود درجات من الشدة ، و لهذا كان الفلاسفة المدرسيون (الاسكلائيون) و المسلمون يميزون بين وجود الله و وجود سائر الكائنات ، و الوجود في الله أقوى منه في الانسان ، ذلك أن وجود الله هو **واجب الوجود بذاته** ، بينما وجود الإنسان هو **ممكن الوجود بذاته** .

---

(28) الميتافيزيقا تعني اشتقاقا ما بعد الطبيعة ، و هو اسم اطلقه أندرونيقوس الرودسي في القرن 01 ق.م على تلك الكتب التي تركها أرسطو بدون تصنيف بعد كتب الفيزيقا (الطبيعة) المخصصة للبحث في مسائل الطبيعة ، و قد خصص أرسطو تلك الكتب التي تُركت من دون تصنيف لمسائل الوجود العام ، و لهذا فإن الاسم جاء عَرضيا تصنيفيا و ليس فلسفيا .

2- 2- طبيعة الوجود :

لقد ظلت مشكلة الوجود[29] منذ فجر الفلسفة إلى غاية مدخل العصر الحديث – لحظة ديكارت و كانط- ظلت تمثل أكبر و أهم بل و أول مشكلة فلسفية واجهها الفلاسفة ، ذلك أن القدماء يجعلون الأولوية للوجود أو ما يسميه الفلاسفة المسلمين بأصالة الوجود و حتى بعض المعاصرين يرون بضرورة أولوية نظرية الواقع (الوجود) على البقية من النظريات (نظرية المعرفة) فالعقل الانساني يتجه بطبيعته إلى تحليل مسائل و مشاكل الواقع قبل أن يتجه إلى البحث في طبيعة الواقع ، و أن تقديم المعرفة على الوجود لا جدوى منه ، ولهذا شكلت ما تعرف بطبيعة الواقع - الوجود أي صفاته ومميزاته (كما و كيفا) شكلت مسألة مثيرة للجدل بين العديد من الأنساق الفلسفية التي يمكن حصرها في :

أ – المذاهب الواحدية Monisme :

على الرغم من أن الواحدية الميتافيزيقية تتخذ صور شتى ، إلا أنها تتفق في رأي واحد يعد قاسما مشتركا بينها ،و هو أن أساس العالم واحد ، و أن كل وجود يرجع إلى (مادة) واحدة أو (مبدأ) واحد ، و عليه فإن الواحدية الأنطولوجية هي تلك النظرة إلى العالم التي تبحث عن الوحدة في الواقع ، و تردُ كل الواقع (الوجود) إلى أصل واحد أو جوهر واحد قد يكون مادة أو روحا أو ذات أو قانونا...الخ . و تنقسم الواحدية إلى عدة اتجاهات هي :

1- الواحدية المادية :

نظر الفلاسفة الطبيعيون قبل سقراط إلى طبيعة العالم (الوجود) فأرجعوا جميع الأشياء على كثرتها و تعددها إلى أصل مادي و احد انبثقت عنه كامل الأشياء : (طاليس أرجعه إلى الماء) ، (انكسمانس أرجعه إلى الهواء) ،(هيرقليطس أرجعه إلى النار) ، أما ديموقريطس و مذهبه الفلسفي فيعتبران أن جميع الموجودات تتألف من أصول مفردة يفصل بينها خلاء (فراغ) و هي جزئيات لا متناهية العدد متحركة فينشأ عن حركتها اجتماع بعضها البعض على صور شتى ، و من هنا تتكون الأشياء ، و إذا انفصلت هذه الجواهر عن بعضها البعض فسدت الأشياء ، و حتى النفس هي تتألف من هذه الجواهر المادية .

هذا و قد امتد هذا المذهب إلى غاية العصر الحديث ، إذ ذهب **توماس هوبز T. Hobbes**(1588- 1679) إلى الدفاع عن الواحدية المادية مؤكدا على وجود هذا الكون المادي فقط الذي يتصف بأبعاده المحددة :

---

(29) في إحدى حجر الفاتيكان صورة شهيرة في حائط ، صوّرها الرسام رفائيل تسمى مدرسة أثينا ، مركز الصورة أرسطو و أفلاطون ، يحيط بهما أتباعهما و تلاميذهما و فيها يشير أفلاطون بإصبعه إلى السماء ، و أرسطو يصغي إلى قوله في فتور مشيرا بيده اليمنى إلى الأرض . هذه الصورة تمثل تاريخ المذاهب في أثينا تمثل تاريخ الفكر الانساني و النظريات الفلسفية في كل العصور ، تمثل المادية و الروحانية ، فالروحانية (المثالية) تشير إلى السماء ، و المادية إلى الأرض .

طول ، عرض ، عمق ، ارتفاع ...الخ و أكد في ذات الوقت أن كل حادث يحدث إنما هو نوع من الحركة المادية ، بل و حتى الاحساسات و الأفكار ليست سوى حركات داخلية في جسم مادي حي .

إلا أن تأسيس المذهب الواحدي المادي فعليًا في الأزمنة الحديثة يرجع إلى الفيزيائي الانجليزي **اسحاق نيوتن I. Newton** (1642 – 1727) الذي يعتقدا أن مختلف الظواهر ذات طبيعة مادية ، فالعقل مثلا صورة من صور المادة التي تتميز بالقوة و التنوع و الحركة و التفكير، فليس ثمة شيء اسمه روح أو عقل مستقل عن المادة ، إذ ليست الظواهر الوجدانية إلا وظائف لأعضاء الانسان فالتفكير وظيفة المخ ، كما أن الذوق وظيفة اللسان يقول **كابانيس G. Cabanis** (1757 – 1808) : **" المخ يفرز التفكير كما تفرز الكبد الصفراء و تهضم المعدة الغذاء "** .

أما **فريدريك نيتشه F. Nietzche** (1844 – 1900) فقد بدا له الاعتقاد بوجود عالم الميتافيزيقا بدا له بمثابة إدانة للحياة إذ أن الاعتقاد بمثل هذا الأمر يجعل من الحياة مجرد زيف أو وهم في عالم زائف و لهذا هاجم **نيتشه** فكرة ثنائية العالم و أكد في ذات الوقت أن العالم هو عالم أحادي و واحد و هو الذي نعيش فيه معتبرا أن الميتافيزيقا صنم (Idole) من أصنام الفلسفة يجب تحطيمه .

و لم يخرج ألماني آخر عن نفس الطرح و هو **هولباخ D. Holbach** (1723 – 1789) الذي هاجم في كتابه **' نسق الطبيعة '** 1770 م كل نظرية تزعم أن وراء الظواهر المحسوسة عالمًا أو موجودات غير مرئية فكل شيء في الوجود يمكن تفسيره بالمادة و الحركة و هما أزليتان و أبديتان . تخضعان لنظام الضرورة . فلا مصادفة ، و لا تدبير إلهي ، و لا غائية ، و لا نفس ، و لا حرية . هذا و نشير إلى أن التفسير المادي للوجود قد تعاظم بسبب التفكير و التطور العلميين الجديدين ابتداء من العصر الحديث .

2- الواحدية الروحية :

تُفسر الواحدية الروحية (المثالية) الوجود بالروح أو العقل وحدهما ، فطبيعة الأشياء الكامنة وراء الظواهر المحسوسة روحية في أصلها فالروح في المذاهب الروحية مصدر الظواهر المادية و البدنية . و إذا كنا غير قادرين على ادراك الأشياء بالحواس و إنما نعرفها بالتفكير المجرد ، نتج عن ذلك أن الطبيعة روحية لا محالة .

و عن من يتبنى هذا التفسير الأنطولوجي فإننا نجد الفلسفة المثالية الألمانية (المطلقة) . و من فلاسفتها **فيخته Fichte** (1766 – 1814) ، **شلينج Schelling** (1775– 1854) ، **هيجل Hegel** (1770 – 1881) ، و لتدعيم وجهة نظرها الأنطولوجية و تبريرها عمدت الى تقديم حجتين هما :

أولا : أن كل وجود كما هو معروف انما يتوقف على التجربة ، و عليه فإن كل وجود إنما يتوقف على القائم بتلك التجربة الذي هو الذهن أو الوعي أو الروح ، و عليه فإن الاذهان أو الارواح و الافكار هي كل ما يوجد و بالتالي فان الذهن أو الروح هما الحقيقة النهائية .

ثانيا : اننا ندرك أو نحس بأنفسنا (الذات) على أننا موجودات لا مادية أو روحية ، لا يمكن التوحيد بين وجودها و بين و جود الأجسام المادية ، و هو عبارة عن شعور حدسي لا نقاش فيه عند الكثير من الفلاسفة المثاليين ، و عليه و مادامت طبيعة الانسان روحية – مثالية فإن ذلك يكشف على أن خصائص الطبيعة الكونية روحية ، ولما كنا نعرف أننا موجودات روحية فإن لنا الحق في القول أن العالم ذو طابع روحي فـ **" تركيب الواقع مماثل لتركيب اذهاننا "** .

لقد اعتقد صاحب **' فينومينولوجيا الروح '** أي **هيجل** أن العقل أو الروح أو المطلق كما يسميه هو ، هو المبدأ الذي يحكم العالم ، و يصنع التاريخ ، فالكون و هذا العالم ما هما في أصلهما إلا تلكما الروح أو المطلق اللذين تطورا عبر الأزمنة و تجسدا في النهاية في صورة انسان ، و عليه فـ (كل مظاهر الحضارة من علم ، ثقافة ، دين ، فلسفة ، ...الخ ما هي إلا تجليات للمطلق عن طريق الجدل الذي حكم على جميع الأشياء بالتغير ، فالوعي هو الذي يحدد الوجود) .

3- الواحدية المحايدة :

بالنسبة لهذا التصور الأنطولوجي فهو يرفض الطرحين السابقين – أي الواحدي المادي و الواحدي الروحي – محاولا في ذات الوقت أن يجد حلا شاملا لهذه المشكلة الميتافيزيقية . هذا الحل أقرب ما يكون إلى مذهب **سبينوزا B. Spinoza** (1632 – 1777) . فالواقع أو الوجود النهائي لا هو مادي و لا هو روحي و انما هو جوهر محايد (الله) بحيث تكون الروح و المادة مجرد صفات له ، فعلى سبيل المثال النظر الى ذهن و جسم الانسان على أنهما وجهين لنفس الجوهر الواحد الكامن من وراءهما و هكذا فان تسميتنا للحادث " ماديا" أو "روحيا" تتوقف على الطريقة التي ننظر بها اليه . فإذا نظرنا اليه من خلال وجه معين (علاقات معينة) لبدا لنا حادثا ذهنيا، و اذا نظرنا اليه من خلال الوجه المادي لبدا لنا بالطبع حادثا جسميا ، و لكن الواقع أنه هو نفس الحادث ، لا يمثل إلا تعديلا لنفس الجوهر الواحد ، و فضلا عن كل ما قيل فإن **سبينوزا** يعتقد أن كل ما يوجد هو الله ، و لما كان الجوهر او الله واحدا أزليا لا متناهيا فإن الواقع بدوره واحد أزلي لا متناه .

ب- المذاهب الثنائية Dualisme :

ويفسر هذا المذهب الوجود بعنصرين مختلفين مثل العقل و المادة أو الجسم و النفس أو الذات و الموضوع أو غير ذلك و قد كان **أنكساغوراس Anaxagore**(500 – 428 ق.م) من الاوائل الذين قالوا بهذا المذهب ، إذ ميز بوضوح بين العقل و المادة فالعقل هو مبدأ النظام و الحركة ، بينما المادة فلا نظام فيها بالنظر لما لا نهاية فيها من الذرات ، و في المادة تكون الفوضى هي سيدة الموقف ، أما العقل فمنظم حركة كل شيء ، ومن أنصار هذا المذهب نجد **أفلاطون** الذي ميز بين عالمين : عالم محسوس و آخر للمثل. و يعتبر **ديكارت** المؤسس الحقيقي لهذا المذهب في العصر الحديث ، و هو يرى أن للوجود جوهرين هما النفس و خاصيتها التفكير ، و الجسم و ماهيته الامتداد و كل منهما مستقل بنفسه قائم بذاته .

ج - المذاهب المتعددة Pluralisme :

لقد نظر فلاسفة آخرون إلى الكون على أنه مليء بالكثرة و التعدد يقول **ويليم جيمس : " إن العالم المتكثر أشبه ما يكون بالجمهورية الفيدرالية ، و هو بذلك ليس امبراطورية أو ملكية مطلقة "** ، فقديما تصور أحد الفلاسفة اليونان -قبل سقراط - و هو **امبدوقليس** أن أصل الأشياء لا يرجع إلى جوهر واحد إنما يرجع الى أربعة عناصر مجتمعة هي : الماء ، الهواء ، النار التراب يضاف اليهما مبدأين غير ماديين هما الحب و الكره .

و لكن أوضح صورة لمذهب الكثرة و العدد ظهرت عند أصحاب المذهب الذري أو الجزء الذي لا يتجزأ (المدرسة الذرية : **لوقيبوس** و **ديموقريطس** و **الأبيقوريين**) . و يتلخص هذا المذهب في أن أساس العالم المحسوس قد ظهر نتيجة لاجتماع الذرات ، هذه الأخيرة لا تختلف كيفا و لكن تختلف كما أي من حيث الشكل و الحجم و الوضع ...الخ و هذا الاختلاف هو ما يفسر الاختلاف العام بين الأشياء .

كما أننا نلتقي مع التفسير الأنطولوجي المتعدد و الكثير في العصر الحديث مع الألماني **ليبنتز W.Leibnitz**(1646 – 1716) مؤسس المذهب الروحي الحديث ، إذ فسر طبيعة الوجود تفسيرا ديناميكيا فقرر أن الموجودات تتألف من ذرات روحية (**منادات** la monade) متناهية العدد و هي أزلية ، تنزع دوما للعمل و الحركة ، تتكون منها الأشياء ، يُوجدها خالق فتصدر عنه كما يصدر النور عن الشمس ، و هي ترتقي من الجماد الى الحيوان فالإنسان فالله (مناد المنادات) ، ومن ثمة لا يكون للعالم الخارجي أو المادة في كل صورهما وجود بذاته .